ابْنُ الحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ
الوَزِيرُ المُهَندِسُ
(. . . ـ 714هـ)

أَعِزَّائِي وَأَحِبَّائِي:

ابْنُ الحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ، الوَزِيرُ المُهَنْدِسُ، مُهَنْدِسُ صِنَاعَةِ السُّفُنِ وَالأَدَوَاتِ الحَرْبِيَّةِ، وَمُخْتَرِعُ العَجَلاتِ الكَبِيرَةِ الَّتِي تَعْمَلُ بِشَكْلٍ آليٍّ وَخَفِيٍّ، وَمُخترِعُ أَدَوَاتِ وَوَسَائِلِ رَفْعِ وَنَقْلِ الأَشْيَاءِ الثَّقِيلَةِ مِنْ مَكَانٍ إِلى آخرَ، وَاحِدٌ مِنْ عُلَمَاءِ العَرَبِ وَالإِسْلامِ الَّذِينَ بَرَعُوا في عِلْمِ الميكانيكا، وَذَاعَ صِيْتُهُ كَمُهَنْدِسٍ خَبِيْرٍ، وَعَالِمٍ بَارِعٍ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ وَبِلادِ المَغْرِبِ العَرَبِيِّ، فَتَهَافَتَ عَلى اسْتِقْطَابِهِ المُلُوكُ وَالأُمَرَاءُ وَالسَّلاطِينُ، وَمَعَ ذَلكَ لَمْ تُصِبْهُ الدُّنْيَا بِمَسَرَّاتِها وَبِنَعْمَائِهَا، بِقَدْرِ مَا رَمَاهُ الزَّمَانُ بِصُرُوفِهِ وَبَلْوَائِهِ، فَمَاتَ مَسْتُورَ الحَالِ بَعِيْداً عَنْ بَلَدِهِ وَعَنْ أَصْدِقَائِهِ وَخِلَّانِهِ بَعْدَ أَنْ عَكَّرَتْ حَيَاتَهُ وَأَيَّامَهُ مِحَنُ السِّيَاسَةِ وَتَبِعاتُهَا في عَصْرٍ كَانَتِ المَكَائِدُ السِّيَاسِيَّةُ، وَمُؤَامَرَاتُ الأُمَراءِ وَالحُكَّامِ أَهَمَّ مَيِّزَةٍ تَطْغَى عَلَيْهِ حَتَّى جَرَّتْ هَذِهِ الأُمورُ كُلُّها سُقوطَ دَولَةِ العَرَبِ وَالمُسْلِمِينَ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ.

أَجَل، لَقدْ أَجَّجَ الحُكَّامُ الَّذِيْنَ كَانُوا يَطْمَعُونَ بِاسْتِحْوَاذِ السُّلْطَةِ، وَيُدْرِكُونَ خَطَرَ

العُلَمَاءِ عَلى سُلْطَانِهِمْ بِمَكْرِهِمْ وَدَهَائِهِمْ غَضَبَ وَنِقْمَةَ العَامَّةِ عَلَى ابْنِ الحَاجِّ؛ لأَنَّهُ - في الحَقِيقَةِ - كَانَ يَدِيْنُ بِالوَلاءِ لِلحُكَّامِ المُخْلِصِينَ الَّذِيْنَ كَانَ يُهِمُّهُمْ وَحْدَةَ الأُمَّةِ، وَالوُقُوفَ في وَجْهِ الأَعْدَاءِ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، فَلَمْ يَجِدِ ابْنُ الحَاجِّ بُدّاً مِنَ الفَرَارِ مِنْ بَلَدِهِ وَوَطَنِهِ لِيَلُوذَ بِالمَنَاطِقِ الَّتِي تَخْضَعُ لِحُكْمِ وَسَيطَرَةِ الإِسْبَانِ الفِرَنْجَةِ، وَأَخَذَ يَعْمَلُ مِنْ هُنَاكَ عَلى تَأْجِيْجِ الثَّوْرَةِ الشَّعْبِيَّةِ في صُفُوفِ الشَّعْبِ عَلى الحُكَّامِ الَّذِينَ حَاوَلُوا التَّفْرِيْطَ بِحُقُوقِ البِلادِ وَالعِبَادِ، وَانْغَمَسُوا في إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِمْ وَغُرُورِهِمْ.

فَابْنُ الحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ إِلَى جَانِبِ كَوْنِهِ عَالِماً مُخْلِصاً لِمهْنَتِهِ، فَهُوَ سِيَاسِيٌّ حَاذِقٌ مُخْلِصٌ لِقَضَايا أُمَّتِهِ المَصِيرِيَّةِ، عَمِلَ جَاهِداً عَلَى تَغْيِيْرِ الوَاقِعِ الأَلِيْمِ الَّذِي عَصَفَ بِالأُمَّةِ وَهَدَّدَ وُجُودَهَا وَحَضَارَتَهَا في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، بَيْدَ أَنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ لِجُهُودِهِ النَّجَاحُ المَأْمُولُ؛ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الوَفَاةُ في الوَقْتِ الَّذِي كَانَتِ الظُّرُوفُ مُهَيَّأَةً لِمَا تَمَنَّاهُ وَعَمِلَ مِنْ أَجلِهِ، فَفَقَدَ أَنْصَارُهُ جُهُوْدَهُ وَآرَاءَهُ، وَبِالتَّالي خَسِرُوا الجَوْلَةَ مَعَ مُنَاوِئِيهِمْ وَخُصُومِهِمْ.

ابْنُ الحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ كَانَ ظَاهِرَةً عِلْمِيَّةً فَرِيدَةً مِنْ نَوْعِهَا أَفْرَزَتْهَا الحَالَةُ العِلْمِيَّةُ وَالثَّقَافِيَّةُ لِلْوُجُودِ العَربيِّ وَالإِسْلامِيِّ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ في الأَيَّامِ وَالسِّنِيْنَ الأَخِيرَةِ الَّتِي سَبَقَتْ سُقُوطَ الدَّوْلَةِ العَرَبيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ فِيْهَا نَتِيْجَةَ المُؤَامَرَاتِ وَالفِتَنِ الَّتِي حَاكَتْهَا البَربَرِيَّةُ وَالشُّعُوبِيَّةُ بِالتَّحَالُفِ مَعَ الفِرَنْجَةِ ضِدَّ الوُجودِ العَرَبيِّ هُنَاكَ.

وَلَو قُدِّرَ لِهذَا العَالِمِ الكَبِيْرِ أَنْ يَسْتَمِرَّ بِبُحُوثِهِ وَابْتِكَارَاتِهِ، وَلَمْ تَرْمِهِ بِنَارِهَا تَبِعَاتُ

السِّيَاسَةِ، وَأَخْطَارُهَا الَّتِي حَاقَتْ بِحَيَاتِهِ، وَمَنَعَتْ عَطَاءَهُ العِلْمِيَّ مِنْ أَنْ يُؤْتِيَ أُكُلَهُ في كُلِّ حِيْنٍ، لَكَانَ لَهُ في الـمَعَارِفِ الإِنْسَانِيَّةِ ـ وَفي عِلْمِ الـميكانيكا خَاصَّةً ـ شَأْنٌ آخَرُ.

فَمَنْ هُوَ ابْنُ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُـحَمَّدُ بْنُ عَليِّ بْنِ عَبدِ اللهِ بْنِ مُـحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ، وَلُقِّبَ بِابْنِ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيِّ نِسْبَةً إِلى جَدِّهِ الأَكْبَرِ وَلِـمَوْلِدِهِ وَنَشأَتِهِ في مَدينَةِ غُرناطَةَ بِالأَنْدَلُسِ.

وُلِدَ ابْنُ الـحَاجِّ في مَدِينَةِ إِشْبِيْلِيَّةَ في بِلادِ الأَنْدلُسِ، وَلَـمْ يَذْكُرِ الـمُؤَرِّخُونَ عَامَ وِلادَتِهِ، أَوْ عَنْ نَسَبِهِ شَيْئاً، وَإِنَّمَا اكْتَفَوْا بِالإِشَارَةِ إِلى أَنَّ وَالِدَهُ كَانَ يَعْمَلُ نَجَّاراً في مَدِينَةِ إِشْبِيْلِيَّةَ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ ابْنَ الـحَاجِّ قَدْ تَأَثَّرَ بَعْضَ الشَّيءِ بِمِهْنَةِ أَبِيْهِ لِـمَا فِيْهَا مِنْ قِيَاسَاتٍ هَنْدَسِيَّةٍ دَقِيْقَةٍ، وَصِنَاعَةٍ لِلأَشْيَاءِ وَالأَدَوَاتِ وَالأَثَاثِ النَّافِعَةِ لِلإِنْسَانِ، ثُمَّ تَطَوَّرَ مَعَهُ الأَمْرُ، فَعَكَفَ عَلى قِرَاءَةِ الكُتُبِ وَالـمُصَنَّفَاتِ العِلْمِيَّةِ الـهَنْدَسِيَّةِ وَالـمِيكَانِيكِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُنْتَشِرَةً بِكَثْرَةٍ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وَيَفِدُ قِسْمٌ كَبِيرٌ مِنْهَا مِنْ بِلادِ الشَّرْقِ العَرَبِيِّ وَالإِسْلامِيِّ، وَلا سِيَّمَا أَنَّ بِلادَ الأَنْدَلُسِ كَانَتْ مَوْئِلاً لِكَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ الَّذِيْنَ يَأْتُونَ إِلَيْهَا مِنْ كَافَّةِ أَصْقَاعِ العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالإِسْلامِيِّ، حَيْثُ كَانَتْ مَحَجَّةً لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ.

وَمِنَ الرَّاجِحِ أَنَّ ابْنَ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيَّ قَدِ الْتَقَى بِبَعْضِهِمْ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُمُ العُلُومَ الرِّيَاضِيَّةَ

وَالـهَنْدَسِيَّةَ وَالـمِيْكَانِيْكِيَّةَ، ثُمَّ شَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالبَحْثِ وَالتَّجْرِيْبِ وَالابْتِكَارِ مُعْتَمِداً عَلَى قُدُراتِهِ العِلْمِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، وَعَلَى ذَكَائِهِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ، فَبَلَغَ في العِلْمِ شَأْواً عَظِيْمَةً، وَذَاعَ صِيْتُهُ بَيْنَ أَهَالي إِشْبِيْلِيَّةَ، بَلْ في الأَنْدَلُسِ كُلِّهَا بِأَنَّهُ مُخترعٌ بَارِعٌ، وَمُبتَكرٌ مَاهِرٌ، وَصَاحِبُ عِلْمٍ وَاسِعٍ وَوَافِرٍ لا يَعْلُو عَلى عِلْمِهِ أَحَدٌ مِنْ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ في اخْتِصَاصِهِ العِلْمِيِّ ـ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالـمِيْكَانِيْكِ ـ وَهُوَ اخْتِصَاصُ النُّخْبَةِ مِنَ العُلَمَاءِ الأَذْكِيَاءِ في ذَلِكَ العَصْرِ.

كَمَا اشْتُهِرَ بِتَخَصُّصِهِ بِصِنَاعَةِ الآلاتِ وَالـمُعِدَّاتِ الـحَربيَّةِ كَالسُّفُنِ وَالـمَجَانِيْقِ وَالـمَقَالِعِ وَالعَرَبَاتِ وَالأَسْلِحَةِ الـمُتَطَوِّرَةِ في ذَلِكَ العَصْرِ، حَتَّى وَصَلَ خَبَرُهُ إِلى سُلْطَانِ الـمَغْرِبِ وَمُؤَسِّسِ دَوْلَةِ الـمُوَحِّدِيْنَ فِيْهَا: السُّلْطَانِ أَبي يُوْسُفَ الـمَنْصُورِ بْنِ عَبدِ الـحَقِّ، فَاستَدْعَاهُ لِلإِقَامَةِ في مَدِيْنَةِ فَاس وَإِنْشَاءِ دَارٍ لِصَنَاعَةِ السُّفُنِ وَالـمُعِدَّاتِ الـحَرْبِيَّةِ في (سَلا) القَرِيْبَةِ مِنْ مَدِينَةِ فَاس، فَلَبَّى ابْنُ الـحَاجِّ دَعْوَةَ السُّلْطَانِ أَبي يُوسُفَ الـمَنْصُورِ، وَانْتَقَلَ إِلى مَدِينَةِ فَاس.

ذَكَرَ الـمُؤرِّخُ لِسَانُ الدِّيْنِ الـخَطِيْبُ في كِتَابِهِ (الإِحَاطَة في أَخْبَارِ غُرْنَاطَةَ) في تَرْجَمَةِ مُحمَّدِ بْنِ الـحَاجِّ؛ فَقَالَ عَنْهُ: «كَانَ مِنَ العَارِفِينَ بِالـحِيَلِ الـهَنْدَسِيَّةِ، بَصِيراً بِاتِّخَاذِ الآلاتِ الـحَرْبِيَّةِ الـجَافيَةِ، وَالعَمَلِ بِهَا، وَانْتَقَلَ إِلى مَدِينَةِ فَاس عَلَى عَهْدِ أَبي يُوسُفَ الـمَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الـحَقِّ، وَاتَّخَذَ لَهُ الدُّوْلابَ الـمُنْفَسِحَ القَطْرِ، البَعِيدَ الـمَدَى، الـمُتَعَدِّدَ الأَكْوَابِ، الـخَفِيَّ الـحَرَكَةِ، حَسْبَمَا هُوَ اليوم مَاثِلٌ بِالبَلَدِ الـجَدِيْدِ ـ دَارِ الـمُلْكِ بِمَدِينَةِ فَاس ـ أَحَدُ الآثَارِ الَّتِي تَحْدُو إِلى مُشَاهَدَتِهَا الركابُ، وَبِنَاء دَارِ الصُّنْعَةِ بِسَلَّا».

وَلِسَانُ الدِّيْنِ الـخَطِيْبُ كَانَ مُعَاصِراً لابْنِ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيِّ، وَأَدْرَكَهُ في الأَيَّامِ الأَخِيْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ.

❁ ❁ ❁

عَرَفَ العَرَبُ مُنْذُ القَدِيمِ صِنَاعَةَ السُّفُنِ، وَلَكِنْ كانَتْ تِقَنِيَّاتُ هَذِهِ الصُّنْعَةِ تَـخْتَلِفُ مِنْ عَصْرٍ إِلى آخَرَ، وَأَوَّلُ مَنْ أَنْشَأَ داراً لِصُنْعَةِ السُّفُنِ الـحَرْبِيَّةِ في تَارِيخِ العَرَبِ وَالإِسْلامِ هُوَ الـخَلِيفَةُ الأُمويُّ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبي سُفْيَانَ في مَدِينَةِ صُوْر وَعَكَّا، وَأَنْشَأَ أُسْطُولاً بَحْرِيّاً كَبِيْراً، ثُمَّ أَنْشَأَ القَائِدُ العَرَبيُّ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ أَثْنَاءَ فَتْحِهِ لِبِلادِ الـمَغْرِبِ العَرَبِيِّ، وَبِلادِ الأَنْدَلُسِ داراً لِصِنَاعَةِ السُّفُنِ الـحَرْبِيَّةِ في مَدِيْنَةِ القَيرَوَان عَلى السَّاحِلِ التُّوْنِسِيِّ حَالِيّاً، وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الـمُؤَرِّخُ ابْنُ قُتَيْبَةَ في كِتَابِهِ (في الإِمَامَةِ وَالسِّياسَةِ) فَقَالَ: «فَبَنَى دَارَ صِنَاعَةٍ في تُونُسَ، وَجَرَّ البَحْرَ إِلَيْهَا مَسِيرَةَ اثْنَي عَشَرَ مِيْلاً، حَتَّى أَقْحَمَهُ دَارَ الصِّنَاعَةِ، فَصَارَتْ مَشْتَى لِلمَرَاكِبِ إِذَا هَبَّتِ الأَنْوَاءُ وَالرِّيَاحُ، ثُمَّ أَمَرَ بِصِنَاعَةِ مِئَةِ مَرْكِبٍ». وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ دَارٍ لِصِنَاعَةِ السُّفُنِ في بِلادِ الـمَغْرِبِ العَرَبيِّ.

وَلـمَّـا قَامَتِ الدَّوْلَةُ الـمَرِيْنِيَّةُ في بِلادِ الـمَغْرِبِ العَرَبيِّ عَلى يَدِ الأَمِيْرِ عَبْدِ الـحَقِّ بْنِ مَرِيْنَ عَامَ (610) هِجْرِيَّةً، وَمِنْ ثَمَّ تَولَّى الـمُلْكَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ يَعْقُوْبُ بْنُ عَبْدِ الـحَقِّ الَّذِي لُقِّبَ بِالـمَلِكِ الـمَنْصُورِ لاجْتِهَادِهِ وَإِخْلاصِهِ في الـجِهَادِ في سَبِيْلِ اللهِ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الوُجُودِ العَرَبيِّ وَالإِسْلامِيِّ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، عَامَ (656) هِجْرِيَّةً، وَسَعَى إِلَى إِنْشَاءِ أُسْطُولٍ بَحْرِيٍّ مُتَطَوِّرٍ، وَمُجَهَّزٍ بِالعَتَادِ الـحَرْبيِّ الـمُتَطَوِّرِ قِيَاساً عَلَى ذَلِكَ العَصْرِ، وَكَانَ قَدْ

سَمِعَ عَنْ صِيْتِ ابْنِ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيِّ العِلْمِيِّ، وَعَنْ خبْرَتِهِ العِلْمِيَّةِ في عِلْمِ الـمِيْكَانِيْكِ وَصِنَاعَةِ السُّفُنِ وَالأَسْلِحَةِ وَالأَدَوَاتِ الـحَرْبِيَّةِ، فَاسْتَدْعَاهُ إِلى الإِقَامَةِ في مَدِينَةِ فَاس، لِلاسْتِفَادَةِ مِنْ خبْرَتِهِ وَعِلْمِهِ.

فَأَجَابَ طَلَبَ الـمَلِكِ الـمَنْصُورِ، وَانْتَقَلَ إِلى الـمَغْرِبِ العَرَبِيِّ، وَقَامَ بِإِنْشَاءِ دَارٍ لِصِنَاعَةِ السُّفُنِ في مَدِينَةِ (سَلا) عَلى سَاحِلِ الـمَغْرِبِ الأَقْصَى، كَمَا قَامَ بِصِنَاعَةِ العَتَادِ وَالأَسْلِحَةِ وَالأَدَوَاتِ الـحَرْبِيَّةِ لِلمَلِكِ الـمَنْصُورِ.

قَالَ السَّلاوِيُّ: «أَبُو عَبْدِ اللهِ مُـحمَّدُ بنُ عَليِّ بْنِ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ الوَزِيرُ الـمُهَنْدِسُ كَانَ مَاهِراً في نَقْلِ الأَجْرَامِ وَرَفْعِ الأَثْقَالِ، بَصِيْراً بِاتِّـخَاذِ الآلاتِ الـحَرْبِيَّةِ، بَنَى دَارَ الصِّنَاعَةِ في مَدِيْنَةِ (سلا) بِالـمَغْرِبِ الأَقْصَى في عَهْدِ دَوْلَةِ الـمُوَحِّدِيْنَ، وَكَانَتْ تُصْنَعُ بِهَا الأَسَاطِيلُ البَحْرِيَّةُ وَالـمَرَاكِبُ الـجِهَادِيَّةُ، لَقِيَ الـحُظْوَةَ عِنْدَ الـمَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ الـحَقِّ، وَصَنَعَ لَهُ الدُّولابَ الـمُنفَسِحَ القَطْرِ البَعِيْدَ الـمَدَى وَالـمُحِيطَ الـخَفِيَّ الـحَرَكَةِ، وكانَ آيَةً في الدَّهاءِ، بَعيدَ الغَوْرِ، وَحِيْدَ زَمَانِهِ بِمَعْرِفَةِ لِسَانِ الرُّومِ».

وَيَظْهَرُ وَاضِحاً مِنْ كَلامِ السَّلاوِيِّ الـمَعْرِفَةُ وَالـخبْرَةُ العِلْمِيَّةُ العَمِيقَةُ الَّتِي حَازَهَا ابْنُ الـحَاجِّ، وَكَذَلِكَ الرُّتبَةُ وَالـمَكَانَةُ الـمَرْمُوقَةُ الَّتِي حَظِيَ بِهَا مِنْ مُلُوكِ عَصْرِهِ.

وَمِـمَّا تَـمَيَّزَ بِهِ ابْنُ الـحَاجِّ الغُرنَاطِيُّ عَنْ عُلَمَـاءِ عَصْرِهِ هُوَ مَعرفَتُهُ بِلُغَةِ الرُّوْمِ وَثَقَافَتِهِمْ، فَكَانَ وَحِيْدَ زَمَانِهِ بِـهَذَا الأَمرِ كَمَـا أَشَارَ الـمُؤَرِّخُونَ، وَكَانَتْ لَهُ صِلاتٌ وَصَدَاقَاتٌ مَعَ بَعَضِ وُجَهَاءِ الفِرَنْجَةِ الإِسْبَانِ، وَلا نَجِدُ لِـمَعْرِفَتِهِ بِلِسَانِ الرُّومِ تَعْلِيْلاً يُقَارِبُ

الـحَقِيقَةَ سِوَى التَّخْمِينِ بِأَنَّ أُمَّهُ رُبَّمَـا كانَتْ رُوْمِيَّةً قَدْ تَزَوَّجَهَا أَبُوهُ مِنَ الـجَالِيَاتِ الرُّوْمِيَّةِ في إِشْبيلية، وَلَكِنْ لَـمْ يُشِرِ الـمُؤَرِّخُونَ إِلَى ذَلِكَ، أَوْ تَـجَاهَلوا ذَلِكَ عَمْداً.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ أَقَامَ ابْنُ الـحَاجِّ في الـمَغْرِبِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ، وَلَـمَّـا وَصَلَ إِلَيْهِ خَبَرُ وَفَاةِ أَبِيْهِ، قَفَلَ عَائِداً إِلى الأَنْدَلُسِ لِيَحْظَى عِنْدَ ثالِثِ مُلُوكِ بَنِي الأَحْـمَرِ هُنَاكَ بِالـحُظْوَةِ الرَّفِيعَةِ، وَبِالـمَكَانَةِ السَّامِيةِ، فَارْتَقَى في الوَظِيفَةِ وَالعَمَلِ حَتَّى وَصَلَ إِلى رُتْبَةِ وَزِيرٍ لَدَى السُّلْطَانِ أَبي الـجُيُوشِ نَصْرِ بْنِ مُـحَمَّدٍ؛ حَيْثُ كَانَتْ دَوْلَةُ بَنِي الأَحْـمَرِ في أَوْجِ قُوَّتِـهَا وَمِنعَتِها.

وَإِذَا كَانَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ فَلا بُدَّ مِنَ الإِشَارَةِ إِلى مُؤَسِّسِ دَوْلَةِ بَنِي الأَحْـمَرِ في الأَنْدَلُسِ، وَهُوَ قَائِدٌ مَشْهُورٌ مِنْ مَدِينَةِ جِيَانَ في الأَنْدَلُسِ يُدْعَى مُـحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ، وَيُلَقَّبُ بِابْنِ الأَحْـمَرِ، وَهُوَ يَنْتَمِي إِلى الأَنْصَارِ مِنْ قَبِيْلَةِ الـخَزْرَجِ وَيَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى الصَّحَابِيِّ الـجَلِيْلِ قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَسَبَبُ ظُهُورِهِ أَنَّهُ كَانَ يَـخْدُمُ في بِلاطِ آخِرِ حُكَّامِ دَوْلَةِ الـمُوَحِّدِينَ في الأَنْدَلُسِ، وَلَـمَّـا ثَارَ أَهْلُ الأَنْدَلُسِ عَلَى الـمُوَحِّدِينَ، قَامَ في الأَنْدَلُسِ رَجلٌ يُدْعَى «مُـحَمَّدُ بنُ هودٍ» وَلَقَّبَ نَفْسَهُ بِالـخَلِيفَةِ.

وَلَكِنَّ مُـحَمَّدَ بْنَ نَصْرٍ الـمُلَقَّبَ بِابْنِ الأَحْـمَرِ اسْتَجْمَعَ الـجُمُوعَ، وَوَقَفَ في وَجْهِ ابْنِ هُودٍ وَهَزَمَهُ، ثُمَّ دَخَلَ غُرْنَاطَةَ وَخَلَعَ عَلَى نَفْسِهِ سُلْطَانَ الأَنْدَلُسِ، وَأَنْشَأَ دَوْلَةَ بَنِي الأَحْـمَرِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ دَوْلَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَإِسْلامِيَّةٍ في الأَنْدَلُسِ قَبْلَ سُقُوطِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ بِيَدِ الإِسْبَانِ.

وَلَـمَّـا آلَ الـحُكْمُ إِلَى ابْنِهِ أَبي الـجُيُوشِ (نَصْرِ بْنِ مُـحَمَّدٍ) ثَالِثِ خُلَفَاءِ بَنِي الأَحْـمَرِ في

الأَنْدَلُسِ، لاقى مِنْهُ ابْنُ الـحَاجِّ الغُرْنَاطِيُّ كُلَّ رِعَايَةٍ وَتَكْرِيْم، وَخَاصَّةً بَعْدَ نَجَاحِ مُهِمَّتِهِ العِلْمِيَّةِ في الـمَغْرِبِ، وَقَلَّدَهُ مَنصِبَ الوَزِيرِ، وَمِنْ يَومِهَا لُقِّبَ ابْنُ الـحَاجِّ بِـ «الـمُهَنْدِسِ الوَزِيْرِ»، فَخَدَمَ ابْنُ الـحَاجِّ في بِلاطِ أَبي الـجُيُوشِ سُلْطَانِ الأَنْدَلُسِ بِكُلِّ إِخْلاصٍ وَوَفَاءٍ لِـمَا لَـمسَ مِنْ شَهَامَةِ أَبي الـجُيُوشِ وَاسْتِبْسَالِهِ في الدِّفَاعِ عَنِ الوُجُودِ العَرَبِيِّ ضِدَّ هَجَمَـاتِ الفِرَنْجَةِ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، كَمَـا كَانَ رَجُلاً عَادِلاً في الرَّعِيَّةِ، وَمُـحِبّاً لِلْعِلْمِ، وَمُـجِلاً لِلْعُلَمَـاءِ، فَسَاعَدَهُ ابنُ الـحَاجِّ في إِدَارَةِ البِلادِ وَالعِبَادِ، وَفي تَدْبِيرِ الأُمُورِ أَحْسَنَ تَدبِيرٍ.

وَلَكِنْ كَانَ عَلَى ابْنِ الـحَاجِّ أَنْ يَدْفَعَ ضَرِيبَةَ شُهْرَتِهِ وَنَجَاحِهِ العِلْمِيِّ وَالسِّياسِيِّ، حَيْثُ تَعَرَّضَ لِلتَّجْرِيْحِ وَالإِشَاعَاتِ الـمُغْرِضَةِ مِنْ قِبَلِ حُسَّادِهِ وَمُنَاوِئِيْهِ، وَاتُّـهِمَ بِدِيْنِهِ وَإِيْمَـانِهِ، لِكَثْرَةِ تَقْلِيْدِهِ لِلفِرَنْجَةِ، وَلِضُلُوعِهِ بِثَقَافَتِهِمْ، وَلِلصِّلاتِ القَوِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَرْبُطُهُ بِـهِمْ.

❁ ❁ ❁

بَعْدَ أَنْ دَامَ حُكْمُ أَبي الـجُيُوشِ أَربَعَ سِنِينَ عَلَى الأَنْدَلُسِ، ثَارَ عَلَيْهِ ابْنُ أُخْتِهِ (الغَالِبُ بِاللهِ)، وَهَزَمَهُ وَنَصَّبَ نَفْسَهُ سُلْطَاناً عَلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وَسَعَى الغَالِبُ لإِلْقَاءِ القَبْضِ عَلَى ابْنِ الـحَاجِّ، لَكِنَّ ابْنَ الـحَاجِّ اسْتَطَاعَ الفِرَارَ إِلى إِحْدَى الـمُدُنِ الوَاقِعَةِ تَـحْتَ حُكْمِ الفِرَنْجَةِ الإِسْبَانِ، وَأَقَامَ فِيْهَا هَرَباً مِنْ بَطْشِ الغَالِبِ وَغَدْرِهِ، وَخَاصَّةً أَنَّ الغَالِبَ قَدْ أَشَاعَ عَنْهُ الفِرْيَاتِ نَظَراً لِلْوَلاءِ الـمُطْلَقِ الَّذِي كَانَ يُدِيْنُ بِهِ ابْنُ الـحَاجِّ لأَبي الـجُيُوشِ، وَلِتَأْثِيرِهِ القَوِيِّ عَلَى عُقُولِ وَنُفُوسِ النُّخْبَةِ مِنْ عَرَبِ الأَنْدَلُسِ.

وَمِنْ هُنَاكَ بَدَأَ ابْنُ الـحَاجِّ يَتَّصِلُ بِأُمَرَاءِ العَرَبِ وَحُكَّامِهِمُ الَّذِيْنَ يَغَارُونَ عَلَى مَصْلَحَةِ

الأُمَّةِ، وَعَلَى الوُجُودِ العَرَبيِّ وَالإِسْلامِيِّ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ الَّذِي بَدأَ يَتَهَاوَى بَعْدَ سُقُوطِ حُكْمِ أَبي الـجُيُوشِ في بلادِ الأَنْدَلُسِ، وَبِالتَّالي بَعْدَ تَرَاخِي الدَّوْلَةِ الـمَرِيْنِيَّةِ في بِلادِ الـمَغْرِبِ، وَتَقَاعُسِ سُلْطَانِـهَا أَبي سَعِيْدٍ الـمَرِيْنِي ابْنِ الـمَلِكِ الـمَنْصُورِ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الـحَقِّ عَنْ مُسَانَدَةِ العَرَبِ في الدِّفَاعِ عَنْ وُجُودِهِمْ ضِدَّ الـهَجَمَـاتِ الـمُتَتَابِعَةِ الَّتِي كَانَ يَشُنُّهَا الفِرَنْجَةُ الإِسْبَانُ عَلَيْهِمْ.

وَمِنْ خِلالِ اتِّصَالاتِهِ وَمُرَاسَلاتِهِ لِلأُمَرَاءِ العَرَبِ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ وَالـمَغْرِبِ تَأَمَّلَ ابْنُ الـحَاجِّ خَيْراً مِنَ الأَمِيرِ الشَّابِّ عُمَرَ بْنِ أَبي سَعِيدٍ الـمَرِيْنيِّ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ وَلَّاهُ إِمَارَةَ سِجِلْمَـاسَةَ في الـمَغْرِبِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الأَمِيْرَ الشَّابَّ كَانَ يَسُوءُهُ الـحَالُ الَّتِي آلَتْ بِسَبَبِهَا الأُمُورُ في البِلادِ، وَكَذَلِكَ تَقَاعُسُ أَبيهِ السُّلْطَانِ أَبي سَعِيْدٍ عَنِ الـجِهَادِ وَقِتَالُ الأَعْدَاءِ، فَعَمِلَ ابْنُ الـحَاجِّ عَلَى تَوْجِيْهِ الأَمِيرِ عُمَرَ مِنْ أَجْلِ إِسْقَاطِ حُكْمِ أَبِيهِ، وَقِيَادَةِ دُفَّةِ البِلادِ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنْقَاذِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ مِنْ بَرَاثِنِ خَطَرِ الفِرَنْجَةِ الإِسْبَانِ، حَيْثُ كَانَ ابْنُ الـحَاجِّ يَرَى عَنْ كَثَبٍ الـمُؤَامَرَاتِ الَّتِي كَانَ يُدَبِّرُهَا مُلُوكُ الفِرَنجَةِ مِنْ أَجْلِ الاسْتِيْلاءِ عَلَى بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وَطَرْدِ العَرَبِ مِنْهَا.

كَمَـا كَانَ لا يَأْملُ خَيْراً مِنْ حُكَّامِ الأَنْدَلُسِ الَّذِيْنَ كَانَ لا يُـهِمُّهُمْ إِلَّا الـمُحَافَظَةُ عَلَى مَنَاصِبِهِمْ وَلَو كَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ التَّفْرِيطِ بِالبِلادِ وَبِمَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، وَلِـهَذَا بَدَأَ حُكْمُهُمْ يَنْحَسِرُ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ رُوَيْداً رُوَيْداً، وَبَدَأَتِ الـمُدُنُ وَالـمُقَاطَعَاتُ العَرَبِيَّةُ تَسْقُطُ في أَيْدِي الفِرَنْجَةِ الإِسْبَانِ مَدينَةً وَرَاءَ أُخْرَى، وَمُقَاطَعَةً تِلْوَ التَّالِية.

لَكِنَّ ابْنَ الـحَاجِّ وَافَتْهُ الـمَنِيَّةُ قَبْلَ اسْتِكْمَـالِ مَشْرُوْعِهِ الوَطَنِيِّ مَعَ الأَمِيْرِ عُمَرَ بْنِ أَبي سَعْيدٍ، فَمَـاتَ مَهْمُوماً عَلى مَصِيرِ أُمَّتِهِ وَعُرُوبَتِهِ في بِلادِ الأَنْدَلُسِ، وَبِالتَّالي بَاءَتْ مُـحَاوَلَةُ الأَمِيْرِ عُمَرَ بْنِ أَبي سَعِيدٍ الانْقِلابِيَّةُ عَلى أَبِيْهِ الَّذي سَاءَ حُكْمُهُ في بِلادِ الـمَغربِ بِالفَشَلِ فِيْمَـا بَعْدُ.

وَكَانَتْ وَفَاةُ الوَزِيرِ الـمُهَنْدِسِ ابْنِ الـحَاجِّ في مَدِيْنَةِ فَاس سَنَةَ (714) هِجْرِيَّةً بَعْدَ أَنِ انْتَقلَ للإِقَامَةِ فِيْهَا بِأَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِـمَـاذَا أَجَّجَ بَعضُ الـحُكَّامِ غَضَبَ العَامَّةِ عَلَى ابْنِ الـحَاجِّ؟

2 ـ بِمَـاذَا اشْتُهِرَ ابنُ الـحَاجِّ؟

3 ـ مَنْ أَنشَأَ أَوَّلَ دَارٍ لِصِنَاعَةِ السُّفُنِ في تَارِيخِ العَرَبِ وَالإِسْلامِ؟

4 ـ مَاذَا أَنْشَأَ مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ؟

5 ـ لِـمَـاذَا لُقِّبَ الـمَلِكُ يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الـحَقِّ بِالـمَلِكِ الـمَنْصُورِ؟

6 ـ بِمَـاذَا تَـمَيَّزَ ابْنُ الـحَاجِّ عَنْ عُلَمَـاءِ عَصْرِهِ؟

7 ـ إِلَى مَنْ يَنْتَهِي نَسَبُ ابْنِ الأَحْـمَرِ؟

8 ـ إِلَى مَاذَا كَانَ ابْنُ الـحَاجِّ يُوَجِّهُ الأَمِيْرَ عُمرَ بنَ أَبي سَعيدٍ؟